(٢)
الفلسفة.. والمقاومة

«المقاومة» فعل إنسانى نبيل يدل باستمرار على مدى قدرة الإنسان ورغبته الدائمة فى التطور وصنع التقدم. وللمقاومة بوصفها فعلا انسانيا صورا عديدة؛ فمنها المقاومة السلبية التى قد يكتفى فيها الإنسان بالاستنكار الداخلى (أى بقلبه) ومنها الايجابى الذى يبدأ بالجهر برفض أى أفعال أو أقوال لايرضى عنها وقد يتطور به الحال إلى الاحتجاج بصور شتى قد يكون من بينها التظاهر أو الاعتصام أو الثورة..الخ. وداخل هذا الإطار العام للمقاومة نجد أنواعا لها؛ فهناك المقاومة السياسية وهناك المقاومة الاجتماعية والاقتصادية، كما أن هناك المقاومة الفكرية، أى المقاومة بالأفكار حيث يمكن للفيلسوف بأفكاره أن يقاوم الصور السلبية التى يراها فى مجتمعه وينقدها بعد رصدها وتحليلها، كما يمكنه مقاومة هذه السلبيات بالدعوة إلى صورة جديدة للحياة الاجتماعية والاخلاقية والسياسية والاقتصادية وهذا ما عرف فى تاريخ الفلسفة باليوتوبيات (أى الدول المثالية أو المدن الفاضلة).

والحقيقة أنه يمكننا أن نعتبر تاريخ الفلسفة من هذه الزاوية تاريخا للمقاومة والثورة على الأوضاع القائمة سواء اكتفى الفيلسوف بالمقاومة

السلبية بنقد هذه الفكرة السائدة أو تلك أو بنقد هذا الوضع القائم أو ذاك وفى أى مجال من مجالات الحياة، أو تجاوز ذلك إلى الدعوة إلى التغيير الشامل والانتقال من الحالة الراهنة التى عايشها إلى صورة جديدة من الحياة التى يرى ضرورة أن ننتقل إليها. ولا ينبغى أن نندهش أو نتعجب من العبارة السابقة حيث إن الدعوة إلى التغيير والتجديد هى الوظيفة الأهم والأسمى للفيلسوف؛ ففى اعتقادى أن المراحل الكبرى فى حياة البشر وانتقالهم من عصر إلى عصر إنما كان أساسه دائما فكرة فلسفية جديدة ويمكن للقارئ العزيز أن يراجع فى ذلك فى ما كتبه صاحب هذه السطور فى بعض مؤلفاته وخاصة «فلاسفة أيقظوا العالم» و«فى فلسفة الثقافة» و«فى فلسفة الحضارة» و«فلسفة التاريخ» و«تطور الفلسفة السياسية».

ولعلنا نجد البدايات الأولى للفلسفة بوصفها دعوة للتغيير والمقاومة فى ظل الحضارة اليونانية؛ حيث تعاظم دور فلاسفة اليونان فى صنع حضارتهم الفتية وذلك بما حفلت به فلسفاتهم من دعوة دائمة إلى التطور والتجديد ومقاومة كل الصور السلبية فى مجتمعهم سواء فى مجال الفكر النظرى أو فى مجالات الحياة المختلفة. ولقد ظهر ذلك بوضوح منذ بداية ظهور الفلسفة عندهم على يد طاليس فى القرن السادس قبل الميلاد؛ إذ تعد فلسفته ومعها فلسفات معاصريه من الطبيعيين الأوائل بصورة ما مقاومة للتفسيرات الأسطورية والخرافية التى كانت شائعة قبل ظهور محاولاتهم لتفسير الطبيعة تفسيرا ماديا استنادا على ما يرونه من عناصر مادية يرتد إليها أى شىء فى هذا الوجود المحسوس، كما تعد فلسفات التيارات المثالية كالإيلية والفيثاغورية من نفس المنظور مقاومة ورفضا

لتلك النظرة المادية فى تفسير الطبيعة والوجود. وهكذا يمكن النظر فى تطور الفلسفة اليونانية بل وتطور تاريخ الفلسفة كله من هذا المنظور؛ فقد كانت فلسفة السوفسطائيين مقاومة لهذا التيار الفلسفى الذى شغله تفسير العالم الطبيعى دون الاهتمام بقضايا الإنسان، وبالطبع فلقد كانت فلسفة سقراط مقاومة لهذا التيار نفسه بقدر ما كانت مقاومة لفلسفة السوفسطائيين الإنسانية الداعية إلى النسبية وخاصة فى مجال الأخلاق والفضيلة. وفى نفس السياق جاءت فلسفة أفلاطون فلسفة تقاوم المادية فى تفسير العالم الطبيعى والنسبية فى تفسير الأمور الأخلاقية والسياسية، ومن هنا كانت دعوته إلى أن الحقيقة ليست فى هذا العالم المادى المحسوس بل توجد فى ذلك العالم الفارق الذى افترضه «عالم المثل ـ عالم المعقولات». ومن المعروف أن فلسفة تلميذه أرسطو قد برزت من خلال رفضه لهذا الافتراض الذى اعتبره خياليا ولا يحل أى مشكلة واقعية ومن ثم قاومه ونقده واعتبره فرضا خياليا زائدا عن الحاجة، ثم اتجه إلى بناء مذهبه الفلسفى والعلمى الخاص الذى حرص فيه على أن يبدأ من الواقع متجها بعد ذلك إلى الكلى والمعقول.

وعلى نفس المنوال يمكن النظر فى تاريخ الفلسفة وسيطا وحديثا على أنه يعد تاريخا يقاوم فيه كل فيلسوف أفكار سابقيه كما يقاوم ما يسود فى عصره من أفكار جامدة عقيمة ومن أوضاع ومظاهر حياتية لا يرضى عنها، فقد كانت فلسفات العصر الوسيط الإيمانية مقاومة ورافضة للفلسفات القديمة وخاصة ما فيها من تيارات مادية، كما جاءت فلسفات العصر الحديث من بيكون وديكارت إلى جون لوك وجون ستيوارت مل ومعهم فلاسفة عصر التنوير مقاومة لكل الأفكار والفلسفات التقليدية

والمدرسية العقيمة، ومن ثم قدم كل واحد من هؤلاء الفلاسفة رؤيته الايجابية لتعيير الوضع القائم كل فى مجال اهتمامه فكان التقدم الذى بدأ وساد فى العصر الحديث نتيجة طبيعية لهذه الدعوات البناءة إلى مقاومة الفكر المدرسى العقيم واستبداله بهذه الأطر المنهجية الجديدة سواء بالمنهج العقلى القائم على الشك والحدس والاستنباط عند ديكارت والعقليين أو بالمنهج الاستقرائى التجريبى عند بيكون ومل والتجريبيين. وهكذا الحال فى ميدان الفكر السياسى فقد كانت فلسفة مكيافيللى السياسية مقاومة للجمود السياسى الغربى وتدخل الكنيسة فى شئون الدولة، كما كانت فلسفة لوك السياسية الليبرالية مقاومة لفسلفات مكيافيللى وهوبز الأنانية الداعية فى كثير من جوانبها إلى الديكتاتورية والاستبداد السياسى. وعلى نفس النحو كانت الفلسفة الماركسية بما دعت اليه من اشتراكية علمية مقاومة لتوحش الرأسمالية واحتكار الرأسماليين للثروة والسلطة ومن ثم لضياع حقوق العمال وغياب العدالة الاجتماعية. وفى المقابل جاءت الاصلاحات الاجتماعية والتأمين على العمال واعانة البطالة وغيرها من اجراءات اتخذت من قبل النظام الرأسمالى مقاومة لانتشار الفلسفة الماركسية الاشتراكية فى العالم ومن ثم انتصرت الرأسمالية بما حققته من اصلاحات كشفت عن مرونة كبيرة من قبل النظم الرأسمالية الليبرالية توارت معها النظم الاشتراكية حينما عجز الكثير منها عن مقاومة عيوب النظام الاقتصادى الاشتراكى الذى سمح بوجود نوعا جديدا من الديكتاتورية هى ديكتاتورية البروليتاريا تلك الديكتاتورية التى قضت على روح المبادرة الفردية وعلى روح المنافسة الاقتصادية الشريفة ومن ثم على وجود نمط اقتصادى مهم أخر هو الاقتصاد الحر.

وهكذا حال الفلسفة والفلاسفة عزيزى القارئ فهى وهم فى حالة مقاومة ودعوة دائمة إلى التغيير والتجديد. وإذا كنا نقول عادة: «أن التغيير سنة الحياة»!! فما بالنا نغفل عن الدور الخطير الذى يقوم به الفلاسفة فى هذا الإطار؟! ومابالنا نغفل عن أهمية الفلسفة والتفلسف فى حياتنا قائلين هذه العبارة السخيفة: «بلاش فلسفة»!!

إن حياة الإنسان أيها السادة لا تستقيم بدون فلسفة وتفلسف، وإلا فليخبرنى أحدكم أثابه الله عن علم آخر نتعلم منه وعن طريقه التفكير العقلى ونتدرب من خلاله على الاستخدام الصحيح لهذه الأداة الفكرية العظيمة التى وهبنا الله إياها المسماة «العقل»!! إننا بالفلسفة نتدرب بداية على التفكير العقلى السليم، وبها نعى أهم قضايا الحياة والوجود، بها أمكننا التعرف على الوجود الإلهى وأمنا بالله، وبها يمكن للمرء المؤمن أن يدافع عن عقيدته ضد الملاحدة ويجذبهم إلى حظيرة الايمان، وبها يمكننا أن نعى كل مظاهر الخلل والفساد المستشرى فى مجتمعاتنا ومن ثم ندعو إلى مقاومتها وتغييرها برفضها والثورة عليها. وبها يمكننا استشراف آفاق المستقبل المشرق الذى يمكن أن نحلم به ونسعى إلى تحقيقه.

إننا بالفلسفة يمكننا مقاومة مظاهر الملل والجمود والرتابة فى حياتنا وندعو إلى تجاوزها بمزيد من التخطيط والعمل الجاد فى تنفيذ هذه الخطط التى تقودنا إلى مستقبل أفضل..

ان علينا مقاومة من يقاومون الفلسفة ودورها الخطير فى نهضة مجتمعنا وأمتنا. ومن ثم نكون أشبه بمن ألقى بحجر فى تلك المياه الراكدة فى حياتنا لتحركها شيئا فشيئا نحو تغيير أسلوب حياتنا الغارق فى الرتابة والجمود إلى أسلوب مقاوم لهذه الرتابة وذلك الجمود بالمزيد من التفكير

المبدع الخلاق والمزيد من العمل والانتاج المتقن حتى يتحقق لنا التقدم الذى نصبوا اليه والرخاء الذى نسعى إلى تحقيقه.

ان علينا توسيع معنى المقاومة فلا نقصرها على المقاومة بمعناها السياسى؛ فقد نكون اليوم أحوج ما نكون إلى مقاومة حالة الجمود الفكرى التى نحياها والتى كاد الحوار والاجتهاد فيها أن يتوقفا، وقد نكون فى حاجة إلى مقاومة حالة التسيب والفوضى الأخلاقية التى نحياها حتى انقلب سلم القيم لدينا، وقد نكون فى حاجة إلى مقاومة حالة التعصب والتطرف التى بلغت لدى بعض الفئات حدا جعلها تتجه إلى محاربة الوطن الذى يسكنونه والشعب الذى يعيشون بين أفراده. إننا بحاجة إلى مقاومة كل مظاهر التخلف فى حياتنا من الأمية التى لا يزال يعانى منها الكثير من أبناء الوطن، إلى النظام التعليمى الذى لا يزال يخرج لنا أنصاف المتعلمين وأنصاف المثقفين.. الخ.

إننا بحاجة حقيقة إلى صور عديدة من فلسفات المقاومة لعلنا نبلغ يوما شاطئ الأمان الذى يمكننا أن نرسو عليه ونطمئن أننا من خلاله سنبدأ الطريق المستقيم نحو التقدم والرفاه متمسكين بقيمنا الأصيلة ومسترشدين بتعاليم ديننا الحنيف، دين العقل والعلم وليس دين التطرف والهمجية.